دور ابن باديس في المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية

أ/ حليمة عواج ـ جامعة باتنة ـ

دور ابن باديس في المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية

لقد أثبت الإنسان الجزائري من خلال الثورة التحريرية الكبرى أنه جدير بأن يكون سيدا في وطنه لا ينازعه فيه غاز أو محتل، بعد أن دافع عنه بالنفس والنفيس، وصمد بقوة أمام جميع أساليب القمع والتعذيب والاضطهاد التي تفنن المستعمر الفرنسي في ممارستها ضده طوال سنوات الاحتلال التي امتدت قرابة قرن وثلث قرن من الزمان.

إن محنة الغزو الفرنسي الذي ابتليت به الجزائر قد صهرت الشعب في أتون المآسي والمصائب فأخرجت أجود ما فيه، وحبلت الأيام بكوكبة ممتازة من الرجال العظام الذين حملوا هَمَّ الأمة وتركوا بصماتهم العميقة في تاريخه النهضوي والتحريري، ونفخوا الروح في كيان حضاري كادت رياح العدوان والحقد الصليبي أن تذهب به، فقد كانت الجزائر: "أول أقطار العالم العربي وقوعا تحت براثن الاحتلال، وقدر أن يكون مغتصبها الفرنسي... حيث استهدف طمس هوية الجزائر ودمجها باعتبارها جزء من فرنسا، ولم يترك أي وسيلة تمكنه من تحقيق هذا الغرض إلا واتبعها فتعددت وسائله وإن جمعها هدف واحد، من إماتة لروح الجهاد، وإفساد لأخلاقها وإقامة فواصل بينها وبين هويتها وثقافتها بمحاربة اللغة العربية وإحلال الفرنسية محلها لتكون لغة التعليم، والثقافة والتعامل بين الناس..."[1]، غير أن المجتمع الجزائري لم يركع لهذه السياسة ولم يستسلم لهذه المخططات بل عمل على افشالها وتحطيمها بكل ما توفر لديه من إمكانات وقدرات كان أضعفها معارك الحرب والقتال ، وأعظمها مدارك الفكر واللسان.

ومما لا شك فيه أن تلك الشجاعة التي كان يتسم بها الجزائري في رد قهر الاستعمار ومواجهة الموت ببسالة كانت نابعة من إيمانه الصادق والثابت أن الشهادة في سبيل الله من أجل الدفاع عن وطنه هي حياة لشعبه، ورضا لربه، وهو هدف أسمى بكثير من هدف المستعمر الذي كان محصورا في نطاق ضيق من الأطماع المادية والأمجاد الدنيوية الزائفة والذي عبر عنه الجنرال "Negrier" (نيغريه) بقوله: "أنت جوقي لتموت وأرسلتك هناك حيث الموت"، وهذا معناه أن من اتخذ الموت هدفا في سبيل تحقيق غايته لا يبالي بموت الآخرين.

ولكن شتان بين من يموت شهيدا في سبيل الدفاع عن وطنه وكرامة أمته وبلاده، وبين من يموت دون مثل أعلى كما يموت البعير"[2].

إن من بين الأسباب التي عمقت مأساة الشعب الجزائري بهذا الغزو الأهوج أن التكالب الاستعماري على بلاده لم يكن حكرا على فرنسا فقط، بل كانت بدورها بمثابة بوابة عبور لقطيع أوروبي جائع، لا يهمه سوى التعذيب والمغامرة وجمع ما أمكنه من المال، وهذا ما يؤكده الكثير من المؤرخين أمثال شارل آندريه جوليان الذي يسجل أنه: "بعد دخول الجيش الفرنسي في الجزائر أركبت السفن الآتية من مرسيليا وإسبانيا وإيطاليا جماهير غفيرة من الأوروبيين لا ذمة لهم ولا ضمير، مجبولين على الشراسة والمغامرة، مولعين بحب الدراهم والدنانير فانتشروا كالبلاء المستطير، متكالبين على بيع العقارات وشرائها. وقد شاطرهم في تفاهتهم بعض الأشخاص المحترمين وكانوا يتكالبون على انتهاب الجزائر تكالب الجياع على القصاع، ويشترون خطفا ونهبا، سرقة وسلبا، لا دين لهم ولا هم لهم إلا الأرباح الباهظة، لا يهم كيف أتت ومن أين أتت"[3].

ولعل في تكرارنا لـ: الاحتلال الفرنسي "لنفي قاطع لمصطلح: "الاستيلاء الكامل" الذي ليس له أي أثر في المعجم الجزائري، ولا يتقبله حتى أن يكون مفردة مهمشة... لأنه يعتبر ذلك وصمة عار على شعبه الذي أصر على أن يكون شوكة في حلق المحتل، وعبرة لمن تسول له نفسه مجرد التفكير في الارتواء من منابع أصولها: "فقد احتل الفرنسيون الجزائر، ولكنهم لم يستولوا عليها، فمذ وطئت أقدامهم ثراها الوطني وسكانها يقاومون الغزاة بصبر وثبات، وبكل ما استطاعوا من قوة. وظلت الجزائر عبئا ثقيلا على فرنسا، تكلفها كل يوم خسائر فادحة في الأموال والعتاد والأرواح، وذلك لأن كل ظفر بزعمهم على الأصلاليين[4] من أبناء البلاد كان يتطلب منهم مواصلة الفتح والقتال، وكل خذلان من جانبهم كان يقتضي من الجزائريين الثأر والانتقام"[5].

هذا مع العلم أن الصبر والثبات في مثل هذه المواقف لا يتأتى إلا بالتمسك بأصول العقيدة الصحيحة (الإسلام) التي لا يزعزعها بطش متجبر ولا تهديد مستعمر، والإيمان بالحق المقدس في استرداد الأرض المغصوبة من براثن عدو شرس متعطش للدماء إذ: "أن السياسة الاستعمارية في إراقة الدم الجزائري ظاهرة التصقت بسلوكات الضباط الفرنسيين منذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزائر، إذ شرعوا في محاولة إبادة شعب بأكمله، والقضاء على شخصيته الوطنية ووجوده وقيمه الخاصة به، وهذا بإراقة دم السكان الأبرياء العزل، وتنظيم مذابح جماعية تقشعر الأبدان لفظاعتها، ويصعب على العقل تصورها، وهذا دليل على تعطش الاستعمار الفرنسي للدم الجزائري، وهو ظاهرة مرضية لازمت سلطات الاستعمار طيلة تواجدها في الجزائر"[6].

أولا: إستراتجية الاستعمار في القضاء على مقومات الشخصية الوطنية

أرادت فرنسا تغيير مجرى مخططها القائم أساسا في بداية حربها على إتباع أساليب القهر والقمع والتجويع والتشريد؛ فلم تجد سوى سبيل القضاء على ثلاثية: الدين، اللغة، الوطن: "وبكلمة جامعة سحق الكيان الجزائري عن طريق إفراغ الأفراد من كل شحنة دينية أو عاطفة وطنية ومن كل شعور يربطهم بأصلهم وتاريخهم..."[7].

ومنبع ذلك إدراكها ـ بعد عقود من المقاومة الشعبية المتواصلة ـ أن الاستقرار في الجزائر لا يكون إلا بالقضاء النهائي على هذه الأركان، حيث دلتها كل الوقائع التاريخية والأحداث المأساوية أن سياستها القائمة على ضرورة القضاء الكلي على الكيان الجزائري بتجاهل قيمه والتنكر لحقوقه بقوة الحديد والنار لم تؤتِ أكلها، ولم تفلح في تحقيق الهدف الإستراتيجي الذي بنى عليه المستعمر أمره وهو تحويل الجزائر إلى قطعة فرنسية بالاندماج الكلي في القومية الفرنسية، لتصبح بعد ذلك جزء لا يتجزأ منها في اللغة والدين والتاريخ والثقافة والوطن، وإن ما يؤكد هذه الإستراتيجية ما نجده في تصريح أحد الكتاب الفرنسيين الذي قال: "نحن بصدد خلق أمة في الجزائر، أمة لن تكون متمدنة بدوننا وفي اليوم الذي احتللنا فيه هذا البلد، وطردنا منه الحكومة الوحشية التي كانت تضطهده تعهدنا بمصائر هذه الشعوب واتخذنا على أنفسنا نحوها عهد تمكنهم من الأنوار والمعارف والعقائد التي تفضلت الحكمة الإلهية بمنحنا إياها، كل ذلك بفضل دولة متحضرة"[8].

لقد جندت فرنسا جميع ما أتيح لها من الوسائل لتحقيق الأهداف العامة لهذا المشروع المرتكز على ثلاثة أعمدة رئيسية هي الفرنسة والتنصير والإدماج، واتخذت جهودها في هذا المجال أوجها عديدة وأساليب متنوعة نذكر منها:

1- القضاء على الدين الإسلامي: من الأهداف الأساسية التي تضمنها هذا المخطط هو محاولة القضاء على الدين الإسلامي بالدرجة الأولى، والذي يعتبر مقوما رئيسيا من مقومات الشخصية الوطنية في الجزائر. فقد أعلنت فرنسا منذ بداية الاحتلال أن من أهم أهداف احتلالها للجزائر هو القضاء على الإسلام ونشر المسيحية، فـ"الدين الإسلامي في الجزائر عامل هام من عوامل التماسك الاجتماعي والوحدة الوطنية والقومية بين الجزائريين. وقد كان منذ دخل إلى الجزائر ولا يزال يشكل مانعا حصينا لشخصية الشعب الجزائري القومية، ضد كل تهديد تتعرض له سواء كان داخليا أو خارجيا..."[9].

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، اتخذت سلطات الاحتلال عدة إجراءات تعسفية ظالمة أهمها:

* مصادرة الأوقاف الإسلامية والاستيلاء -بالوسائل القهرية- على أملاكها، وذلك بعد أشهر قليلة فقط من الاحتلال.

وقد كانت الأوقاف هي التي تمول القطاع الديني وتنفق عليه، تستوي في ذلك المساجد والجوامع، والمدارس والمعاهد الدينية والكتاتيب والزوايا. فقد سجل المؤرخون أن الاستعمار التفت إلى الأوقاف التي حبسها المسلمون على المساجد للتعليم والحج ووجوه البر في المجتمع، فاستولى عليها وضمها إلى ملكيته[10].

وبذلك حرمت هذه المراكز من المورد الوحيد الذي تعتمد عليه في أداء رسالتها الإسلامية والتعليمية على أكمل وجه فـ"تقلص بذلك ظل التعليم العربي؛ وأخذ ينكمش شيئا فشيئا إلى أن اختفى، لأن التعليم الوطني الذي كان قبل الاحتلال كان يعتمد كل الاعتماد على هذه الأوقاف وعلى المساجد والزوايا التي كانت بمثابة معاهد، وعلى المكتبات التي نالها التخريب هي الأخرى"[11].

لقد كان الاستيلاء على الأوقاف وحرمان المؤسسات الدينية والتعليمية من عائداتها ضربة قاسية أفضت إلى اندثارها، وسهلت للسلطات الاستعمارية المضي قدما في مشروعها بالتمكين للجهل والفقر في أوساط الجزائريين، والتمهيد لهدف آخر هو نشر المسيحية في البلاد من خلال تحويل عدد كبير من مساجد وجوامع الجزائر إلى كنائس للنصارى، ومن ذلك عدد من الجوامع في العاصمة وقسنطينة، وكذلك عدد منها في عنابة ووهران ومختلف المدن الجزائرية الكبرى.

التنصير: فتح الاستعمار المجال الواسع للحركات التنصيرية، فباركت الهيئات التبشيرية نشاطه، وأيدته بكل الإمكانات سواء المادية منها أو الإدارية. ونعني بالتنصير هنا: "محاولة إخراج الجزائريين من دينهم الإسلامي وتنصيرهم كي يصبحوا مسيحيين يحملون عقيدة المحتل لبلادهم . وهذا يعني إحلال الديانة المسيحية محل الديانة الإسلامية في الجزائر حتى ينهار مقوم آخر من مقومات الشخصية الجزائرية وهو الإسلام"[12].

فقد دلت الأحداث التاريخية التي صحبت العملية العسكرية الفرنسية أن فرنسا منذ بداية الاحتلال في عام 1830 كانت تهدف –عن إصرار وقناعة - إلى أن نشر المسيحية في الجزائر لتوجيه ضربة قوية إلى صميم المجتمع الجزائري. وشواهد ذلك كثيرة وصريحة، منها ما أعلنه سكرتير الحاكم العام الفرنسي للجزائر في عام 1832 حينما رسم مستقبل الصراع بين الإسلام والمسيحية في الجزائر في قوله: "إن آخر أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام للأبد، أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا"[13].

ولتأكيد هذه السياسة- أقيمت احتفالات عديدة كان الغرض والمغزى الحقيقي والوحيد من ورائها هو" تشييع جنازة الإسلام في الجزائر"[14]. فعلى الرغم من أن فرنسا دولة "لائكية" أي علمانية كما ينص دستورها: "إلا أنها في الجزائر احتضنت

سياسة تبشيرية واسعة النطاق لتنصير الجزائريين، وتعاونت تعاونا كبيرا مع الهيئات التبشيرية المسيحية من مختلف أنحاء العالم من أجل القضاء على الإسلام الذي وقف حجر عثرة في طريق محاولاتها لتحطيم مقومات الشخصية الجزائرية... يوضح ذلك أن شؤون الدين الإسلامي ظلت منذ بداية الاحتلال في عام 1830 حتى خروج الاستعمار الفرنسي من الجزائر في عام 1962 خاضعة للسيطرة الاستعمارية..."[15].

التدخل في شؤون المؤسسات الإسلامية: لقد أخضعت سلطات الاحتلال كل المؤسسات والشعائر الإسلامية لإشرافها المباشر. فوضعت يدها على المساجد والزوايا والمدارس والكتاتيب، وكانت تعيِّن المؤذنين والحزابين والمعلمين بقرار إداري وتصرف رواتبهم، وتخضعهم لشروطها، وتتولى تكوين لجنة الأهلة التي ترصد هلال رمضان وشوال، ولجنة الحج، ولجنة الزكاة، وتراقب مراقبة دقيقة كل صغيرة وكبيرة في قطاع الشؤون الدينية حتى لا يفلت الحبل من يدها لعلمها بالخطورة الكبيرة التي يمثلها الإسلام على وجودها إذا ما غفلت عن التضييق عليه في مؤسساته. وهذا ما يفسر لنا حملات الاضطهاد والملاحقة التي تعرض لها العلماء المصلحون حينما تصدوا لإلقاء دروس الوعظ والإرشاد والتفسير والفقه والحديث في المساجد، فقد وجدوا السلطات الاستعمارية لهم بالمرصاد، حيث حرمت عليهم الاتصال بالجماهير في بيوت الله لأنها تعلم علم اليقين أنهم يحملون في عقولهم وقلوبهم نور الإسلام الحي المتوثب الذي يوقظ النائم وينبه الغافل ويُبَصِّرُ الجاهل ويرشد الضال، وهي تريد للإسلام أن يبقى طقوسا جامدة، فارغة من محتواها لا صلة لها بالواقع.

وعندما تجاوزتها إرادات العلماء المصلحين، ووجدوا لهم منفذا هنا وهناك وأحست بدبيب النهضة يسري في أوساط الشعب المقهور لم تتوان عن تسخير رجال الدين الرسميين للعمل كجواسيس للإدارة الفرنسية على مواطنيهم مما يتنافى مع مكانتهم الدينية المبجلة[16]، مستعملة في ذلك شتى وسائل الإغراء من مناصب وترقيات ومكافآت مالية وأوسمة ونياشين .

وقد بلغ من تعنت الإدارة الاستعمارية وإصرارها على الاحتفاظ بالشؤون الإسلامية تحت إشرافها وعدم تسليمها للهيئات الدينية الجزائرية الكثيرة التي كانت تطالب بها أن ضربت بعرض الحائط بقانون فصل الدين عن الدولة الذي أقرته الجمهورية الفرنسية وطبقته في بلادها وأوصت بتطبيقه في الجزائر باعتبارها مقاطعة فرنسية تقع وراء البحر، غير أن سلطات الاحتلال مكنت الدينين اليهودي والمسيحي من الاستفادة من هذا القانون، وتركت لهما الحرية الكاملة في إدارة شؤونهما، وحرمت الدين الإسلامي من ذلك: "حتى تحول بين الجزائر وبين النهوض بالمؤسسات الإسلامية على الوجه المطلوب، وكان الوالي العام الفرنسي في الجزائر هو الرئيس الأعلى لشؤون الدين الإسلامي. ولم ينته هذا الوضع إلا بانتهاء الاحتلال في الجزائر في عام 1962"[17].

إن تسلط الاستعمار على المؤسسات الإسلامية قد حرمها من أداء دورها الحضاري في توعية الشعب وتنويره والارتقاء بأخلاقه. وكان هذا المخطط الماكر جزء من مشروعه الكبير للقضاء التدريجي على الركائز الأساسية للكيان الإسلامي في الجزائر: "لبثت عوامل الاستعمار تهدم من هيكل الإسلام ولا تبني، وترمي المقومات الأساسية والخصائص العربية كل يوم بفاقرة من المسخ"[18].

2- القضاء على اللغة العربية: تعرضت اللغة العربية في عهد الاحتلال إلى اضطهاد كبير وعمل أقطاب الاستعمار على تهميشها، إذ اعتبرت لغة اختيارية في المدارس الثانوية والعالية، بينما كانت اللغة الفرنسية تتربع على عرش الثقافة في الجزائر باعتبارها اللغة الوحيدة والرسمية لهذا الشعب. لذلك لم يجد الجزائريون ملاذا - لاستعمال لغتهم وإثبات وجودهم - إلا في الكتاتيب القرآنية وفي بعض الجوامع والزوايا، وكذا مدارس التعليم العربي الحر البعيدة عن أعين الاستعمار، وكثيرا ما كانت يد الاحتلال تطال هذه الملاجئ السرية فتعيث فيها فسادا.

لقد وضعت فرنسا نصب عينيها ضرورة القضاء على اللغة العربية واعتبرت ذلك هدفا إستراتيجيا لإدراكها العميق لمدى خطورة اللغة القومية في بناء الشخصية الوطنية، فأرادت بذلك أن تهدم أصولها الثقافية وتمحوها للأبد باعتبارها: "روح الأمة وعرقها النابض، بحيث يكون القضاء عليها بمثابة القضاء على ذاتية الأمة"[19].

ومن ثم شن الاستعمار حربا ضارية على اللغة العربية. ويرجع تاريخ هذه الحرب إلى السنوات الأولى من دخول الاحتلال إلى الجزائر، وبلغت ذروتها في الفترة الممتدة من 1930 إلى 1956 بموجب القرار الوزاري الفرنسي عام 1938 "شوطان "Chautemps"، الذي ينص على اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ممنوعة في كل المعاهد الفرنسية أو العربية الحرة (الشعبية)، ولكي تبدو الفكرة مقنعة برر وزير داخلية فرنسا ذلك بقوله إن تعليم العربية هو: "محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية"[20].

وقد اتخذ المخطط الاستعماري للقضاء على اللغة العربية في هذه الفترة اتجاهات عديدة تصب كلها في الهدف الأكبر. وسنشير هنا إلى أبرز معالمه:

1 ـ كان أخطر قرار اتخذته سلطات الاحتلال في هذا المجال هو فرنسة التعليم في الجزائر في جميع المراحل فَـَرنسة كاملة خاصة في المرحلة الابتدائية، واعتبار العربية لغة أجنبية واختيارية في بقية المراحل الأخرى، تحديدا في البرامج والكتب ولغة التدريس بهدف محوها تدريجيا.

فمن ناحية فرنسة التعليم الابتدائي كانت فرنسا ترى أن طمس الشخصية الوطنية لا يكون إلا من خلال اقتلاع جذورها المتمثلة في شخصية الطفل: "ذلك أن الطفل الذي لا يتلقى لغته أو يتشرب روحها في طفولته ينشأ طفلا مفكك الشخصية"[21].

وتلك – فعلا - ضربة قاضية للغة العربية بما فيها من بعد كلي عن المبادئ الدينية والخلقية والاجتماعية بالإضافة إلى ما تؤكده التربية الحديثة من أن: "تعليم الطفل لغة أجنبية وهو في سن مبكرة خطر على كيانه الوطني من جهة ومن جهة أخرى يضر بنموه الثقافي، ويضعف من سرعته لتقبل المعلومات والمهارات الضرورية في مثل هذا الطور"[22].

أما بالنسبة للتعليم في المرحلة الثانوية فقد كان ينظر إلى اللغة العربية نظرة احتقار، وبذلت جهود عديدة للتخلص منها والغرض واضح منذ البداية وهو أن: "يتضاءل شأن اللغة العربية، وتهون مكانتها، ويسقط اعتبارها"[23].

لذلك يمكن القول إن حظ اللغة العربية في التعليم الثانوي كان ضئيلا سواء من ناحية المادة الأدبية أو من ناحية التوقيت، فالأولى نجد فيها أن النصوص الأدبية التي كانت تشرح للتلاميذ في حصص اللغة العربية تدور حول حكايات "جحا" وقصص "السندباد البحري" وغيرها من حكايات التسلية والفكاهة"[24].

إلا أن هذه التعديلات لم تكن لتصل لما وصلت إليه لولا الإصرار والرغبة من الجانب الوطني في ضرورة التطوير لكي تتلاءم مع التطورات التربوية الحديثة[25].

لقد تعرفنا من خلال المعطيات السابقة على نصيب اللغة العربية في الطورين الابتدائي والثانوي، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: ما هو حظ اللغة العربية في الجامعة الجزائرية؟

لا نخفي الحقيقة المرة في التعليم الجامعي. فقد كانت اهتمامات الجامعة الجزائرية في ظل الاحتلال الفرنسي تصب في قالب بعيد عن متطلبات الشخصية الوطنية، ولا علاقة لمناهجها الدراسية بالتاريخ والحضارة العربيين، فالدراسات العربية والإسلامية في كلية الآداب "كانت تدور حول اهتمامات القرون الوسطى، ومن هنا فإن اهتمامات الدراسات العربية كانت في أكثرها متجهة نحو الماضي العربي الكلاسيكي من وجهة النظر اللغوية والأدبية"[26].

ومهما يكن من أمر فإن هذا السلاح الذي استخدمته فرنسا في مختلف أطوار التعليم - الحامل لعنوان "إهانة واحتقار الجزائريين"- كان موجها للقضاء على الكيان الثقافي للأمة الجزائرية العربية المسلمة.

2 - وبالموازاة مع ذلك، عمل الاستعمار على فرنسة الإدارة ووسائل الإعلام والثقافة فرنسة تامة كذلك بغرض صبغ البلاد بصبغة فرنسية خالصة في كل صغيرة وكبيرة، وتم تصنيف اللغة العربية في المرتبة الثانية، وتقسيمها إلى ثلاثة أقسام: عربية عامية، وعربية فصحى وعربية حديثة واعتبارها غير صالحة للتعليم، وتشجيع اللهجات البربرية على حسابها[27].

ولا جرم أن نقول إن فرنسا استطاعت من خلال هذا المشروع الاستئصالي أن تتحكم في الشخصية الجزائرية وتوجهها حسب رغبتها من خلال الضغط على وتر

اللغة الحساس الذي يعتبر ركيزة مهمة في تكوين الشخصية الوطنية: "لما كانت اللغة العربية تمثل مقوما أساسيا من مقومات الشخصية الجزائرية لأنها لغة جنس، وقومية، ودين؛ في وقت واحد حاول الاحتلال الفرنسي أن يقضي عليها بكل الوسائل المتاحة له كي يقضي على الشخصية الجزائرية وبذلك يتمكن من ابتلاع الجزائر في كيانه الخاص"[28].

3- القضاء على الوطن: يمثل الوطن الجزائري عاملا قويا من عوامل تكوين الشخصية القومية للجزائريين والمحافظة عليها. وكان الشعور بالانتماء إليه والارتباط به بمثابة حصن منيع لمحاربة الأعداء الذين تكالبوا عليه على مر العصور. حيث ضرب الجزائريون عبر التاريخ أمثلة رائعة في الذود عن وطنهم وتطهيره من الغزاة والمحتلين ولم تتمكن الجيوش العربية من كسر مقاومتهم الشرسة لها أثناء الفتوح إلا بعد أن دخلوا في الإسلام أفواجا فقبلوا بالوجود الإسلامي إكراما للدين الذي اعتنقوه: " لقد شعر الجزائريون بحب وطنهم، والذود عنه وحماية حدوده ضد الغزاة على مدار التاريخ، ولذلك فإن الجيوش العربية الإسلامية التي ذهبت لفتح الجزائر في القرن الأول الهجري من أجل نشر الإسلام، وجدت صعوبة كبيرة في تحقيق مهمتها ولقيت مقاومة عنيفة من الجزائريين ولم تتمكن من فتحها إلا بعد عدد من الغزوات استمرت سنوات طويلة، ولكن عندما دخل الجزائريون في الإسلام أصبحوا من أشد المسلمين إيمانا بالإسلام وتعلقا به، ورغبة في نشره وحماسة في حماية ثغوره وذودا عن مقدساته"[29].

وتحقيقا لهذا الهدف عملت فرنسا على عدة جبهات نذكر منها:

أ. **التاريخ:** فقد تعمدت سلطات الاحتلال أن تجعل المناهج الدراسية الخاصة بمادة التاريخ والموجهة إلى التلاميذ الجزائريين في كل الأطوار مقصورة على دراسة تاريخ فرنسا بكل تفاصيله منذ أقدم العهود إلى فترة الاحتلال الفرنسي، والتعتيم التام على التاريخ الجزائري وبخاصة الفترة الإسلامية التي شهدت ازدهارا ملحوظا لمختلف الحواضر الجزائرية، وقيام دول عتيدة لعبت دورا أساسيا في السياسة الدولية، ونشاط الحركة الفكرية والعلمية بكل ما خلفته من تراث غني. وأرغم الأطفال الجزائريون على الاكتفاء بتعلم الأبجدية العربية، وحفظ القرآن الكريم دون تفسير، لترسخ في أذهانهم فكرة واحدة هي أن بلادهم: "فرنسية في حاضرها ومستقبلها، ورومانية في ماضيها ولا شيء غير ذلك"[30]، وأنهم ينحدرون من الجنس نفسه الذي ينحدر منه الفرنسيون، فكان التلميذ يلقن أن أجداده هم الغاليون les gaulois، وأنهم كانوا يسكنون قديما في بلاد الغال la Gaule بجنوب فرنسا[31].

ب. **الجغرافيا:** واتبع الاستعمار الأسلوب نفسه في مادة الجغرافيا باعتبارها مادة ذات طبيعة إستراتيجية خطيرة في تكوين الروح الوطنية والشخصية القومية للمتعلمين، حيث كان التلاميذ الجزائريون يدرسون جغرافية فرنسا بشريا وسياسيا واقتصاديا وطبيعيا، ويلقنهم المدرسون أن الجزائر: "جزء لا يتجزأ من فرنسا (الأم) وهي عبارة

عن ثلاث مقاطعات فرنسية توجد وراء البحر المتوسط ويحكمها وال عام معين من قبل حكومة فرنسا"[32].

ومن بين القوى التي اعتمدت عليها فرنسا في ذلك ما يلي:

1- **المستشرقون**: وتمثلت مهمتهم في تشويه الحقائق الإسلامية بتخدير العقول الضعيفة بكثير من الأخبار التي لا أساس لها من الصحة فكلها خرافات وأباطيل تقلل من شأن العرب والمسلمين: "أما في جامعة الجزائر فقد كان قسم الدراسات العربية والإسلامية التابع لكلية الآداب يحصر اهتمامه في الغالب في الدراسات الإستشراقية. وكان أساتذته من المستشرقين الفرنسيين، وكانوا يهتمون أكثر ما يهتمون بالدراسات اللغوية القديمة، ولذلك لم يكن للغة العربية والأدب العربي وتاريخه في مختلف العصور مكانة معتبرة كما لم يكن للحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي حظ يذكر..."[33].

2- **رجال النخبة أو المتشبعون بالثقافة الفرنسية**: ونعني بذلك أبناء الجزائر الذين ارتادوا المدارس الفرنسية وتشبعوا بالثقافة الفرنسية وانبهروا بها وسلبت عقولهم مظاهر الحضارة الغربية، فاحتقروا أصلهم، وازدروا أجدادهم، وسخروا من تراثهم وتبرؤوا منه، وأعلنوا عن انتمائهم إلى حضارة المستعمر فتكلموا لغته، وتزيوا بزيه، واكتسبوا عاداته وتقاليده، وتجنسوا بجنسيته ودعوا أبناء وطنهم إلى الاقتداء بهم في الانسلاخ من هويتهم والالتحاق بهم. هذه الفئة التي أطلق عليها المستعمر اسم النخبة أي صفوة المجتمع كانوا يسعون بكل جهدهم لإنجاح المشروع الاستعماري الذي كان يهدف إلى إدماج الجزائريين في المجتمع الفرنسي عن طريق منحه الجنسية الفرنسية مقابل أن يتخلى عن الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية في أحواله الشخصية، وكانوا يدا قوية للمحتل في محاولاته اليائسة لتدمير الشخصية الجزائرية.

3- **مشايخ الطرق الصوفية المنحرفة**: لا نقصد بذلك المشايخ الذين عرفوا بالعلم والاستقامة الدينية والمحافظة على القيم الإسلامية، والذين وجهوا جهودهم كلها لنشر العلم وتربية الناس بل هناك بعض الطرقيين الجهال الذين فقدوا الحس الوطني والروح الإسلامية الصحيحة وانحرفوا وأصبحوا يجرون وراء الشهرة والمادة لذلك أغراهم الاستعمار فانضموا إليه عن طواعية فـأصبح: "البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، أو بعبارة أوضح من استعمارين مشتركين... استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي واستعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه والمتاجرون باسم الدين والمتعاونون مع الاستعمار عن رضا وطواعية"[34].

رجال الدين الرسميون: وهم فئة الموظفين الذين عينتهم الإدارة الاستعمارية في مختلف المؤسسات الدينية الإسلامية وأجرت لهم الرواتب وأصبحوا تابعين لها في جميع شؤون حياتهم. ونظرا للمقاييس الخاصة التي كانت تنتقي بها سلطات الاحتلال

هؤلاء الموظفين فقد كان أغلبهم يعاني من نقص واضح في الأخلاق والتدين والمروءة، لذلك كانوا حريصين جدا على البقاء في مناصبهم حتى ولو تعارض ذلك مع مقتضيات الدين والمصلحة الوطنية والكرامة الإنسانية، واستغل المستعمر هذا الشعور فجندهم ليكونوا أبواق دعاية له في أوساط الشعب، ووسيلة تخدير للجماهير حتى تظل مستكينة مستسلمة لواقعها البائس، فكانوا يجنحون في دروسهم إلى مهادنة المستعمر حتى ولو كان في ذلك تعارض مع الحقيقة الإسلامية أو روح الآية القرآنية، ويسكتون عن الحقيقة وهم يدركون بأن ذلك مناقضا للدور الذي يجب أن يؤدوه، فإذا ما عرضت لهم آية قرآنية في دروسهم أو موقف أساسي يحتاج إلى تحليل فكري أو اجتماعي أو سياسي فإنهم لا يتحرجون من تقديم الشروح التي لا تثير غضب الحكام الفرنسيين.

4- البعثات التبشيرية: كانت مهمتها استمالة عواطف الأطفال والشباب واستدراجهم لاعتناق المسيحية، وقد أظهرت هذه البعثات نشاطا خاصا في ميادين الخدمات الاجتماعية، وتغلغلت في المناطق الأكثر فقرا واحتياجا لإغراء الأهالي بالمساعدات المالية واستدراجهم إلى الدين الجديد؛ وتمثلت هذه الأخيرة (المساعدات) في الإسعافات الصحية والإعانات الغذائية والكسائية ... وغيرها مما يسهم في استمالة الأطفال وجلبهم إلى الديانة المسيحية[35].

وإن ما يؤكد ذلك ما ذكره البشير الإبراهيمي من أن : " الاستعمار في الجزائر لم يكن استعمارا ماديا وعسكريا فحسب، بل جاء يحمل السيف والصليب معا... كان استعمارا مسيحيا.. وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم وانتهك حرماته بروح مسيحية رومانية تشع بالحقد وتفور بالانتقام"[36].

إذن: كيف استطاع ابن باديس تفعيل هذه الثلاثية؟ وما هي أهم الوسائل التي استخدمها لتحقيق ذلك؟ وما مدى نجاح مشروعه الإصلاحي؟

ثانيا: جهود ابن باديس في المحافظة على الشخصية الوطنية (1889-1940)

إن شخصية ابن باديس غنية في منشئها، وثرية في عطائها، ومن الصعوبة بمكان الإلمام بشتى تفاصيلها وأبعادها في حيز ضيق من الكتابة، فهو إنسان عظيم عظمة نهضته الإصلاحية وفكره التربوي والسياسي والفلسفي، وهو شخصية فذة عبقرية، رسم لنا رفيق دربه وحياته، وأعرف الناس به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بعضا من جوانب عظمته في قوله: "باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها المغيرة على الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشئ مجلة "الشهاب" مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية، والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح ومحي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة وملقن مبادئها على البيان، وفارس المنابر

الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب، وجمعيات التربية والتعليم"[37].

لقد آمن ابن باديس إيمانا لا شك فيه أن نهضة الجزائر يجب أن تبنى على أساس متين من مرجعية الشعب المقدسة المتمثلة في القرآن الكريم دستور المسلمين ورسالة السماء الخاتمة، لذلك " بنى عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم... وآمن أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقه"[38].

وتتجسد المعالم الكبرى لحركة النهضة والإصلاح التي قادها ابن باديس في ثلاثة محاور أساسية هي: تجديد الدين ثم ترقية اللغة وتعميق الانتماء الوطني:

1- تجديد الدين: إن الشعب الجزائري شعب مسلم وهو متمسك بالإسلام تمسكا شديدا، ومنه يستمد تصوره الديني والفكري، ونظامه الاجتماعي، وهو في منظور ابن باديس: "منهج هداية ونظام اجتماعي شامل تنتظم ضمن فصوله أمور الحياة الدنيا، ومطالب الحياة الأخرى لأن الإسلام في جوهره، وكما فهمه أئمة السلف هو سعي جاد إلى الموائمة بين الطبيعة والإنسان وبين الحياة البشرية في جوانبها المادية والحياة البشرية في جوانبها الروحية"[39].

فهو بذلك دين الإنسانية يدعو إلى العدل والإنصاف والتسامح مع الأديان الأخرى مصداقا لقوله تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [40].

فقد رخص الله عز وجل للمسلمين بمودة من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم، فرفع عنهم الحرج في أن يبروهم، وهي أعدل قاعدة في معاملة غير المسلمين التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، كما يؤكده ابن باديس: "دين الإنسانية التي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، لأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله".

إن المسلم يعيش في هذه الأرض لعقيدته ويجعلها قضيته مع نفسه ومع الناس من حوله، فلا خصوم على مصلحة ولا جهاد في عصبية، وانطلاقا من هذا التصور نجد أن الإنسان الجزائري يمارس بدوره نشاطاته المختلفة على كل المستويات الأسرية والاجتماعية والأخلاقية في ضوء هذه العقيدة. فعلى الرغم من محاولة الاستعمار تشويه الحقيقة الإسلامية في أذهان الجزائريين كما أسلفنا الإشارة إليه، إلا أنها ظلت راسخة في أعماقهم على مر السنين.

وكان من أهم المجالات التي دفعت هذا التجديد الحضاري للدين للاستقامة على أصوله الثابتة التالي:

2- تطهير العقيدة: وتنقيتها من البدع والخرافات، وصياغة العقل الجزائري صياغة جديدة تتوافق ونشاطه الطبيعي[41]، فهو جانب مهم ولولا أهميته في النهوض بالإسلام وإعادة الفعالية لعقيدته في النفوس لما كان من الأهداف الأولية لجمعية العلماء

المسلمين، فـ: "عندما ظهرت الحركة الإصلاحية في الجزائر مع عبد الحميد بن باديس وأنصاره أعلنت عن أهدافها الأولية في محاربة البدع والمنكرات التي كانت متفشية بين مريدي الطرقية"[42].

3- **إحياء الفقه الإسلامي**: والفقه هنا يربط بين المعرفة والعمل، وبين النظر والتطبيق؛ وقد شرحه أبو حنيفة بـأنه: "معرفة النفس ما لها وما عليها، وفي هذه المعرفة مع العمل بها إصلاح الدنيا والآخرة"[43].

ويرى ابن باديس في هذا الصدد أن: "القرآن وهو كتاب الإسلام كتاب حكمة، والحكمة هي العلم الصحيح والإدراك القويم للحقائق وهو الخلق الكريم والعمل الصالح "، ثم يوضح فيقول: " ففي الفقه في دين الله الكمال العلمي وفي العمل به الكمال العملي... وما كمال الإنسان العلمي وكماله العملي إلا بالمعرفة الصحيحة والسلوك المستقيم"[44].

فهو يدعو إلى تحريك العقل الاجتهادي بالرجوع المباشر إلى مصادر الإسلام الأصلية المتمثلة في الكتاب والسنة، ومن أجل تنبيه الناس إلى الحقائق الموجودة في القرآن الكريم من خلال فهمه وتدبره وإتباعه والسير على هديه، وهدفه من ذلك هو: "إقامة مجتمع إسلامي متكامل"[45].

بهذا التصور أكد ابن باديس فكرة أنه لا يمكن للأمة الإسلامية النهوض من سباتها ولا التقدم لرقيها إلا بواسطة الإسلام الذاتي: "إذا فنحن المسلمون – مطالبون دينيا- بأن نكون مسلمين إسلاما ذاتيا"[46].

4- **ترقية اللغة العربية**: لقد كانت للغة العربية مكانة عالية في نفس ابن باديس وكذا في نفس كل مواطن جزائري باعتبار أنها اللغة الوطنية والقومية للمجتمع الجزائري، وتعد مقوما أساسيا من مقومات الشخصية الوطنية، وتقديرا لقيمتها الثقافية: "درسها ابن باديس ودرس تاريخها وآدابها، وعرف الوظائف الحية التي تضطلع بها، والقيم التي تزخر بها، وأدرك بعمق ارتباطها بالإسلام، وبوجدان الإنسان المسلم، لأنها الأداة التي بها يناجي ربه، ويفهم القرآن، ويطلع على حقائق الإسلام والتراث وبها يتواصل مع أبناء جنسه، ويحس بانتمائه القوي إلى أمته، وبأن هذه اللغة جزء من كيانه، وركن من أركان شخصيته"[47].

وقد بدا ذلك واضحا في مجموعة من الجهود المنظمة والموجهة التي بذلها في هذا المجال، والمتمثلة في تنشيط حركة التربية والتعليم بالشكل التالي:

–جعل من التعليم بالجامع الأخضر بقسنطينة مدخلا جريئا لتنفيذ هذا المشروع. إذ يعتبر الجامع الأخضر بمثابة جامعة من ناحية، ومعهد لتكوين المعلمين والأساتذة الذين تحتاج إليهم الجزائر في مواجهة المستعمر من ناحية أخرى.

–تعد البعثات التي كانت ترسل إلى تونس لاستكمال تعليمها موردا لتغطية الحاجة إلى المدرسين في المدارس التي بدأت شيئا فشيئا تنتشر في ربوع الوطن.

– الاستعانة بالمتخرجين في بلدان المشرق والمغرب أو بعض المدرسين الذين تخرجوا من المعاهد الفرنسية في الجزائر والذين - بطبيعة الحال-يحسنون العربية.

–كذلك الاعتماد على مدرسة التربية والتعليم التي كانت تعد الأطفال إعدادا أوليا يستطيعون بعده إكمال دراستهم داخل البلاد أو خارجها.

–جمعية التربية والتعليم: الهيئة المشرفة على التعليم العربي برئاسة الأستاذ الإمام بقسنطينة[48].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المشروع الإصلاحي الخاص باللغة العربية هو أن الهدف من تعليمها لا يكمن في تربية الأجيال وتمكينها من معرفة لغتها وامتلاك القدرة على استخدامها فقط، بل هناك أهداف أسمى من ذلك، حاول ابن باديس تحقيقها بغرس حب اللغة العربية في نفوس المتعلمين وجعلهم يحسون بأنها جزء من كيانهم، ورمز معبر عن شخصيتهم، وتمكين المتعلمين من الإطلاع على تاريخهم وتراثهم، وفهم دينهم وقرآنهم، بالإضافة إلى اعتماد النصوص اللغوية –شعرية كانت أم نثرية- مصدرا حيا لبث الروح الوطنية في نفوسهم بتكوين جيل معتز بوطنه ومؤمن بضرورة العمل لخدمته[49].

ويبدوا واضحا أن حركة التربية والتعليم النشيطة التي انتشرت في سائر أنحاء الوطن قد ازدهرت بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي قضت بالتدريج على محاولات الاستعمار في تشويه صورة اللغة العربية واتهامها بالعجز والقصور، هذه اللغة التي جسدت كل المكنونات الموجودة في قلوبنا وعقولنا وأرواحنا من عقائد وأفكار وآلام وآمال بواسطة أداة فعالة عبر عنها ابن باديس في قوله: "إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين، وخدم العلم وخدم الإنسان هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان، ونعمل لإحيائه منذ سنين فليحقق الله أمانينا"[50].

وبرعاية هذه الحركة التعليمية النشيطة تمكن ابن باديس من تحقيق كثير من الأهداف التي سطرها للنهضة الجزائرية، بالاعتماد الكبير - بالدرجة الأولى- على أعمال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على الرغم من العراقيل التي كانت تضعها السلطة الفرنسية في طريقها. وقد صور لنا الإبراهيمي جانبا من المعاناة التي كانت تلحق حركة التعليم العربي الحر وهي اضطهاد المعلمين الأحرار وتوقيفهم وحبسهم وتغريمهم وما إليها من الإجراءات التعسفية الظالمة التي كانت تلحق كل من يسير في ركاب الجمعية ويدعم مسيرتها التعليمية في قوله: "بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم، ونقدر أنها ستعم، وأن أول المطر قطرة، وأن الأحكام ستكون بالغرامة والسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرتفعة[51] ونستقبل هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي بإخواننا المجرمين في مجالس الأحكام ومقاعد الاتهام، وحسبنا شرفا أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا... وحسب الاستعمار

ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية والإسلام ويسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة وسجن واحد..." [52].

5- **تعميق الانتماء الوطني**: من بين القضايا المهمة التي كانت تشغل تفكير ابن باديس بالموازاة مع تأييد عروبة الجزائر وإسلامها هي: تعميق الانتماء الوطني، وتفعيل فكرة الوطن والوطنية في زمن كانت الأمة في أشد الحاجة إلى منقذ يأخذ بيدها بعيدا عن الشبهات والأكاذيب وكل الأخطار المحدقة بها، ويعيد الثقة لأهلها بتأكيد هويتها الوطنية وانتمائها الحضاري.

فقد تصدى ابن باديس لكل المحاولات الاستعمارية القائمة أساسا على بذر بذور الخلاف بين العناصر المختلفة من الشعب الجزائري بين عرب وبربر، ووجد أن تمسك الشعب بعروبته وإسلامه كفيل بإفشالها، ولم تزد تلك المحاولات للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم، وقوة لرابطتهم بفعل هذا الجدار المتين الثلاثي الأبعاد الذي لا يقهره أي عدو مهما كانت صفته، فالإسلام والعربية والجزائر شعاره الوطني الفعال في بعث اليقظة والوعي الوطني[53].

لذلك استطاع ابن باديس أن يقلب الموازين وأن يوقظ في نفوس الجزائريين الإحساس بوجود وطن لهم، له حدوده وتاريخه وثقافته ووجوده الحضاري المتميز عن فرنسا، وكيفية المحافظة عليه انطلاقا من تجسيد ذلك في مجال التربية إذ: "أفردت مناهج التعليم العربي الحر مكانة خاصة لتعليم جغرافية الجزائر... وقد كانت بعض كتب الجغرافيا المقررة على تلامذة التعليم العربي الحر مكتوبا على غلافها الخارجي الشعار التالي الذي يلخص مقومات الشخصية الجزائرية وهو: الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا؛ وهذا الشعار رفعته الحركة الوطنية ضد سياسة الاحتلال التي تقوم على أساس الفرنسية والتنصير والإدماج"[54].

كان هذا الشعار بمثابة الترياق لمحاربة السموم التي تزرعها الثقافة الفرنسية في نفوس الجزائريين، وكان أيضا بمثابة الدافع القوي في المحافظة على الشخصية الوطنية، والتحذير من الحضارة الغربية، والدعوة إلى تحريرها من قيودها.

إلا أن ظهور ما يسمى بجماعة النخبة غير مجرى الدفاع ليدفع ابن باديس لرسم خطوط عريضة لمحاربة هذه النخبة التي تعد إحدى ثمرات السياسة الاستعمارية المرة، وهي عبارة عن مجموعة من المثقفين الجزائريين الذين تشبعوا بثقافتها وحضارتها، وتبنوا مبدأ الاندماج التام في فرنسا.

وكان لهذه النخبة أثرها في نفوس الجزائريين، فأصابتهم بحالة من التمزق الكلي بين الانتماء الأصلي العربي الإسلامي لهم وبين الانتماء إلى الحضارة الغربية وهو الحل الذي تقدمه لهم هذه الجماعة وترغبهم في الذوبان فيها.

ويصف ابن باديس هذا الواقع الأليم فيقول: "لقد كان هذا العبد يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء ليس له مدارس تعلمه، وليس له رجال يدافعون

عنه، ويموتون عليه، بل كان في اضطراب دائم مستمر ويا ليته كان في حالة هناء، وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم، وقد ينكرونها"[55].

وإن ما يثبت أفكار جماعة النخبة في إيمانها بأنه لا وجود للجزائر بدون فرنسا هو ما أورده فرحات عباس عام 1936 في مقالة بجريدة الوفاق تحت عنوان: "فرنسا هي أنا"؛ قائلا: "إنني لست مستعدا للموت في سبيل الوطن الجزائري لأن هذا الوطن لا وجود له، إنني لم أكتشفه، ولقد سألت عنه التاريخ، وسألت عنه الأحياء والأموات، وزرت المقابر من أجل اكتشافه فلم أجد من يكلمني عنه إطلاقا... إننا يجب أن لا نبني فوق الرمال، وإنني قد أبعدت بصفة نهائية كل خيال لكي نربط المصير بصفة مطلقة مع الوجود الفرنسي، إن الأمة الجزائرية مجمعة على اعتبار نفسها أمة فرنسية بحتة لا وطن لها إلا الوطن الفرنسي، ولا غاية لها إلا بالاندماج الفعلي التام في فرنسا[56].

فمقالته هذه تجمع بين السخرية والاستهزاء الواضحين من الأمة الجزائرية التي هي –في نظره- غير موجودة في الأصل من جهة، وبين التباهي والافتخار بالاندماج الفعلي التام في فرنسا من جهة أخرى؛ كما يضيف قائلا: "هذه سياستي ومسلكي ومنهاجي، ولو بقيت وحيدا فيه فليس لنا وطن إلا فرنسا، وليست لنا لغة علم ومدنية إلا لغة فرنسا، ولن ننال حقوقا إلا بواسطة فرنسا"[57].

ولعل أقوى ردود ابن باديس وأشدها وقعا هو ما جاء على صفحات الشهاب ردا على مقالة فرحات عباس مبرزا فيها أهم الجوانب التي تميز الجزائر عن فرنسا وتعطي لها الحق بأن تكون أمة مستقلة، لها حدودها الوطنية الخاصة بها قائلا: "الأمة الجزائرية أمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمم الدنيا، ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا، ولو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود ومعين هو الوطن الجزائري بحدوده المعرفية"[58].

ولم تقتصر أفكاره هذه فقط على مجلة الشهاب بل أرادها أن تصل إلى أذهان جميع الفئات الجزائرية، لذلك سعى إلى بثها في نفوسهم، وغرسها في أعماق الأطفال باعتبارهم يمثلون مستقبل الجزائر، عن طريق التعليم الحر- كما سبقت الإشارة إليه- وكذا تلك الدروس والمقالات والمحاضرات التي تلقى في المساجد، وكان هدفه من ذلك هو تخريج أجيال متشبعة بالروح الوطنية، مدركة لأبعاد الشخصية الجزائرية رافضة لسياسة الاندماج والفرنسة.

وقد نجح ابن باديس في تحقيق هدفه، وبلوغ غايته المنشودة إلى حد بعيد، وبذلك يكون قد وجه ضربة قوية لمشروع الإدماج الذي كانت تراهن عليه السياسة الاستعمارية، وتعده خطوة مهمة نحو احتواء الجزائر نهائيا.

ولعل ما يؤكد هذه الفكرة تلك التقارير السرية التي كانت تعدها المخابرات الفرنسية المكلفة بمتابعة نشاط الجمعية ومراقبة رجالها والتي أكدت أن: "شعب مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية والإسلام الذي يمارسونه هو مدرسة حقيقية للوطنية"[59].

إن المتتبع للنشاط الإصلاحي في الجزائر يعرف تماما مدى صعوبة المهمة التي تصدى لها الشيخ عبد الحميد بن باديس في فترة حرجة جدا من تاريخ الجزائر الحديث، وكان إيمانه صادقا وعميقا بأن الجزائر لن تنهض من كبوتها ولن تكسر قيود الاستعمار إلا بإعادة تشكيل المقومات الوطنية وتفعيلها وغرس الوعي بها في أوساط الشعب، ويمكننا أن ندرك الأهمية البالغة التي تكتسيها هذه الثلاثية المقدسة من خلال نشيده المشهور:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له رام المحـــال مـــن الطـــلب

والجدير بالذكر بعد هذا المقام المخصص –أصلا- لمشروع ابن باديس الإصلاحي هو ذكر أهم الوسائل التي ساعدته في التصدي للمشروع الصليبي القائم على الثلاثية المعاكسة والمدمرة في الوقت نفسه من تنصير وفرنسة وإدماج، لذلك كان لزاما علينا أن نفرد جزءًا خاصا بهذه النقطة.

الوسائل المستخدمة في المشروع الإصلاحي:

بدون مواربة يتطلب البحث قبل إيراد الوسائل التي استعملها ابن باديس في خطته الإصلاحية ضرورة معرفة المصدر الذي انتقى هذه الوسائل ورأى أنها أنجع طريقة لتحقيق الأهداف المرجوة. ويتمثل هذا المصدر في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان يترأسها بنفسه، والتي كان لها الفضل الكبير في توحيد الصفوف لمحاربة المستعمر الفرنسي وجمع الأمة الجزائرية ضد وجوده وإحياء العقيدة الإسلامية في النفوس، ونشر العلم بين الناس. ونستطيع أن نحصر أهم هذه الوسائل وأكثرها تأثيرا في النهضة الجزائرية فيما يلي:

1- **المساجد**: كان إحياء دور المساجد وتمكينها من أداء مهمتها الحضارية الخطيرة وسيلة هامة من الوسائل التي اعتمد عليها ابن باديس. حيث جعل منها قاعدة لنشر التعليم بين جميع فئات الشعب من خلال تنظيم دروس تعليمية وتثقيفية (للعامة والخاصة)، وكانت في الأصل موجهة لثلاث فئات من الناس:

– **فئة جمهور المتعلمين**: وهي فئة خاصة بالطلاب المتفرغين لتلقي العلم والوافدين من مختلف جهات القطر، وقد أسس بهم خطته، وكون منهم طلائع النهضة، وجنود التعليم، وأطر مدارسها تعليما وإدارة وإشرافا.

– **فئة جماهير الرجال والنساء**: وهم يشكلون عامة المواطنين الجزائريين الراغبين في دروس التثقيف العام التي تزيدهم وعيا، وتكسبهم معرفة وتثقف عقولهم، فكان الرجال يتلقون الوعظ والإرشاد كل ليلة، وأما النساء فكن يتلقين الدروس الخاصة بهن مرة في الأسبوع (يوم الجمعة بعد العصر).

– **فئة الشبان**: عن طريق التوعية والتكوين العام بإعطاء دروس عامة تتناول قضايا لغوية ودينية وتاريخية، وكذا الحوار في قضايا وطنية واجتماعية وسياسية بتخصيص يوم العطلة الأسبوعية، وقد قسمهم إلى قسمين، قسم في الصباح وآخر في المساء.

وبذلك استطاع ابن باديس أن يقضي على الفكرة الخاطئة التي عششت في الأذهان لعهود طويلة من أن المساجد هي أماكن حكرا على العبادة فحسب، وأعاد للمساجد دورها الحقيقي الذي تأسست من أجله منذ ظهور الإسلام وهو اقتران العبادة بالتعليم والتثقيف. يقول ابن باديس مؤكدا هذا التوجه: "المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام، فما بنى النبي ﷺ يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه، ويجلس لتعليم أصحابه فارتبط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما لا مسجد بدون صلاة، كذلك لا مسجد بدون تعليم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة فلا إسلام بدون تعليم"[60].

وكان التعليم في المساجد يعتمد على مؤسسات عدة منها: الجامع الأخضر الذي يعتبر مؤسسة رئيسية للتعليم منذ 1913م، ومؤسسات فرعية للجامع الأخضر هي: مسجد سيدي قموش التابع لأسرة ابن باديس، ومسجد سيدي بومعزة ومسجد سيدي فتح الله، بالإضافة إلى مسجد سيدي ميمون[61].

وبين دروس الوعظ والإرشاد والدروس المنظمة التي تتوزع على مختلف المساجد الجزائرية تكمن الحركة التربوية الناجحة لابن باديس بالرغم من ضيق حدود المؤسسات التعليمية.

2- **المدارس**: يعد التعليم المدرسي امتدادا للتعليم المسجدي ولكن بشكل أوسع يتمثل في سد كل الثغرات التي أصابت التعليم الجزائري خاصة التابع للمدارس الفرنسية وذلك حينما قرر ابن باديس: "توسيع الذاكرة والخروج بالمشروع الإصلاحي والتربوي من إطاره الضيق إلى مجاله الواسع، وهو تعليم الأجيال تعليما وطنيا أصلا، وذلك بالدعوة إلى إنشاء مدارس حرة يتعلم فيها أبناء الجزائر لغتهم ودينهم وتاريخهم، وبعض المعارف العلمية الملائمة لأعمارهم"[62].

وكما كان التعليم في المساجد يرتكز على مؤسسات عديدة، كان للتعليم في المدارس مؤسساته الخاصة به، فكانت أول مؤسسة انطلق منها، هو مكتب التعليم العربي في مسجد سيدي بومعزة عام 1926، وبعدها نقل إلى مقر الجمعية الخيرية لاتساعها وتعدد حجراتها، ثم تأسست جمعية التربية والتعليم الإسلامية عام 1930م، وبعدها تحول مكتب التعليم إلى مدرسة عصرية تحمل اسم هذه الجمعية، وكانت الانطلاقة من قسنطينة واتسعت دائرتها التعليمية حتى شملت مختلف جهات الوطن، بفضل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[63].

ونتيجة التوجه الصحيح والدعوة الصادقة لان باديس ورفاقه تأسست العديد من المدارس الحرة النابعة بين نفوس المخلصين لوطنهم بأموالهم الخاصة، وكان هدفهم من ذلك هو تلقي العلم النقي والتربية الوطنية الأصيلة بعيدا عن الإدارة والتعليم الفرنسيين، وهذه المدارس كانت موجهة لكل فئات المجتمع الجزائري من ذكور وإناث صغارا كانوا أم كبارا.

كما كانت "تعطي فيها دروس محو الأمية للشبان والكهول الذين لم يسبق لهم تعلم لغتهم، فيتعلمون القراءة والكتابة في هذه المدارس ليلا بعد تسريح التلاميذ الصغار"[64].

ومما يجدر بنا معرفته هو أن هذه الجمعيات والمؤسسات قد تعرضت لكثير من الاضطهادات والمضايقات والمطاردات من السلطة الاستعمارية المتوحشة إلا أن ذلك لم يزدها إلا قوة واندفاعا نحو العمل المتواصل، والمقاومة المستمرة. وظل جنود التعليم العربي الحر مرابطين في مواقعهم ومتعالين على كل أشكال القمع والاضطهاد رافعين شعار التعليم الجزائري الأصيل ومتحدين الإدارة الاستعمارية في قوة وعنفوان.

وقد رسم لنا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي صورة واضحة للجهود الجبارة التي بذلتها جمعية العلماء في سبيل نشر التعليم العربي الحر فقال: "سعت الجمعية بما استطاعت من أسباب أن توسع دائرة الأمكنة بإحداث مكاتب حرة للتعليم المكتبي للصغار وبتنظيم دروس في الوعظ والإرشاد الديني في المساجد، وبتنظيم محاضرات في التهذيب وشؤون الحياة العامة في النوادي، وصحبها توفيق الله تعالى فنجحت مساعيها في هذا الباب نجاحا عظيما، وأثمرت أعمالها إثمارا نافعا، ولولا موانع من الأحكام الإدارية الجائرة في غلق بعض المكاتب، والتضييق في إعطاء الرخص، وإيصاد المساجد في وجوه الوعاظ لكانت النتيجة اليوم مما تغتبط به الجمعية. كذلك سعت الجمعية إلى إصلاح أساليب التعليم حتى تقضي في تعليمها بقسميه المكتبي والمسجدي على تلك الأساليب العتيقة العقيمة التي كان يباشر بها التعليم..."[65].

ولعل أخطر ضربة وجهت لنشاط الحركة الإصلاحية هو قرار شوطان الذي نص على إغلاق المدارس العربية الحرة، ومنع كل معلم من مزاولة نشاطه التعليمي إلا بعد حصوله على رخصة التعليم من الإدارة الفرنسية، وهذا الوضع تحدث عنه ابن

باديس بقوله: "فمدرسة دار الحديث ما زالت مغلقة ومثلها مدرسة القليعة، والمعلمون في بجاية وغيرها مازالوا يساقون إلى المحاكمة كمجرمين وطلبات الرخص ما زالت تقابل بالرفض أو بالسكوت"[66].

لكن ابن باديس لم يقف مكتوف اليدين بل قال في قوة وإصرار: "إننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي بعون الله في تعليم ديننا ما يصدنا عن ذلك شيء... وإننا على يقين من أن العاقبة -إن طال البلاء- لنا وأن النصر سيكون حليفنا"[67].

وبالفعل كان النصر حليف الشعب الجزائري من خلال هذا الحصن المنيع الذي أسسه الإمام العلامة ابن باديس وساعده في بنائه وتشييده بالدرجة الأصلية رفاقه العلماء وإخوانه المجاهدون وعلى رأسهم الشيخ الإبراهيمي ومن ورائهم جميعا كل أبناء الوطن المخلصون المتعاونون.

3- **النوادي**: لربما كان السبيل الوحيد والوسيلة الأنجع لجلب همم الشبان لبعث روح الوطنية في نفوسهم، وتثقيف أفكارهم بروح التربية العربية الإسلامية وإبعادهم عن خطر الانحراف المحدق بهم إنشاء هذه النوادي لتكون بمثابة الركن المساند للمساجد والمدارس لأن: "طبقات الأمة ثلاث: صغار تضمهم المدارس الابتدائية، وكبار تجمعهم المساجد، وشباب تتخطفهم الأزقة، وأماكن الخمر والفجور. فإذا أرادت الجمعية أن تقوم بواجبها الديني معهم لم تجدهم لا في المساجد ولا في المدارس، لذلك لا تجد الجمعية وسيلة لتبليغهم دعوة الدين والعلم إلا في النوادي"[68].

ولهذه النوادي أبعادها المتعددة وجوانبها المختلفة في تجسيد الشخصية الوطنية والمحافظة على مقوماتها الفعالة في المجتمع الجزائري إذ كانت: "الجمعية توجه عنايتها من خلال النوادي الاجتماعية إلى تربية الشباب تربية خلقية ودينية ووطنية، وتجعلهم أحرص على مقومات الشخصية العربية الإسلامية وهي اللغة والدين والوطنية الجزائرية"[69].

وتتمثل نشاطات هذه النوادي في كل من: الكشافة والجمعيات الرياضية والثقافية والفنية "بقصد ربطهم في شبكة محكمة من العلاقات الاجتماعية والدينية والوطنية"[70] من أجل تحقيق الأغراض التالية:

- حماية الشباب من عوامل الانحراف السياسي والفساد الأخلاقي والانحلال الديني.
- استغلال طاقات الشباب بما يعود على الوطن بالنفع والفائدة.
- تربية الشباب تربية عربية إسلامية[71].

ومن بين هذه النوادي الثقافية التي كانت منتشرة في ربوع الوطن الجزائري نذكر على سبيل التمثيل:

- في قسنطينة: نادي الاتحاد، ونادي صالح باي الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم نادي عبد الحميد بن باديس.
- في العاصمة: نادي الترقي.

- في ميلة: النادي الإسلامي.
- في البليدة: نادي التقدم.
- في سيدي بلعباس: نادي النجاح.
- في سكيكدة: نادي العمل.
- في قالمة: نادي الشباب المسلمين.

ولولا هذا الذكاء وهذه الفطنة في رسم خطة محكمة في توطيد دعائم الوطنية لكان الشباب الجزائري في مهب الريح، أسيرا تكبله قيود الأزقة والخمور من جهة، وضائعا تبهره مباهج الحضارة الفرنسية الزائفة من جهة أخرى. ويعتبر هذا انتصارا باهرا حققته الجمعية باهتمامها المتواصل والجريء بقطاع الشباب عن طريق ملء فراغهم وتشجيعهم على المشاركة في فرق رياضية ومسرحية وموسيقية[72].

4- **الصحافة**: لقد برزت عبقرية ابن باديس في تحطيم الكيان الفرنسي الذي عمل على نشر الفساد والدمار –من خلال توجيه نشاطه الإصلاحي توجيها آخر له تأثير فعال في تغيير مجرى الدفاع بطريقة مميزة تمثلت في الصحافة باعتبارها وسيلة كفاح فكرية تعبر عن أفكار الشعب الجزائري ومطالبه، وتناضل من أجل تحقيق آماله في الحرية والانعتاق. فقد وجد ابن باديس أن الصحافة طريقة من أكثر الطرق المجدية لتوسيع الدعوة الإصلاحية من قسنطينة وتعميمها على بقية المناطق الجزائرية.

ولعل أهم الجرائد التي كان لها الصدى القوي في تفعيل دور الصحافة في تأدية رسالة الإصلاح والدفاع عن حقوق الشعب الجزائري في خضم النشاط الصحافي لابن باديس الجرائد التالية: المنتقد، الشهاب، السنة، الصراط، الشريعة، البصائر.

1. **جريدة المنتقد (1925)**: هي أول جريدة برزت في ظروف مضطربة فـ: "في 1925 أقبل ابن باديس على تأسيس أول صحيفة كانت منبرا حرا للأفكار الإصلاحية هي: (جريدة المنتقد)" التي كان شعارها: "الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء"، ولكنها لم تعمر طويلا نظرا لشدة لهجتها في الانتقاد إذ أوقفتها إدارة الاستعمار بعد صدور ثمانية عشر عددا منها...."[73].

وكانت مهمة هذه الجريدة صعبة جدا نظرا للظروف القاهرة التي مرت بها، فقد جاء في افتتاحية العدد الأول لهذه الجريدة توضيح للسياسة المتبعة فيها: "بسم الله، ثم باسم الحق والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيها، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون، وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها لا مقصرين ولا متوانين"[74].

2. **جريدة الشهاب (1925-1939)**: بعد توقيف عمل جريدة المنتقد لم يتوان الشيخ عن مهمته بل: "عوضها بجريدة أخرى هي الشهاب التي تحولت بعد أربع سنوات إلى مجلة شهرية، واستمرت تواصل رسالتها، لكن بلهجة معتدلة وأسلوب مرن إلى أن توقفت من تلقاء نفسها في بداية الحرب العالمية الثانية"[75].

وبفضل الأسلوب المرن الذي اصطنعه ابن باديس في معالجة القضايا الحساسة استطاع تحقيق أهدافه دون أن تتفطن الإدارة الفرنسية لخباياها مما ضمن لهذه الجريدة العيش الطويل فـ: "استمرت في الصدور حتى عام 1939 عندما أوقفها ابن باديس بنفسه عشية إعلان الحرب العالمية الثانية لأنه رفض لها أن تكون أداة في يد الإدارة الفرنسية التي وضعت الصحف تحت إشرافها المباشر بموجب قوانين الحرب"[76].

والجدير بالذكر هو أن ابن باديس كان يشرف إشرافا كاملا على جريدة الشهاب رئاسة وتحريرا، وأما المنتقد فكانت مشتركة الآراء والأفكار فـ: "عندما أسست جمعية العلماء، وأصبح ابن باديس رئيسا لها احتفظ بالشهاب لنفسه تنشر أفكاره الخاصة بالإضافة إلى ما تنشره للجمعية، ولم يحاول جعلها جريدة رسمية لها وكان هو بنفسه يحرر معظم أبوابها، ويكتب مقالاتها الافتتاحية"[77].

3. **السنة، الشريعة، الصراط، البصائر: (1935-1956)**:

وعلى الرغم من ضيق الوقت لدى ابن باديس إلا أنه استطاع أن يجد لنفسه مجالا حرا يضع من خلاله بصماته على مقالات هذه الجرائد التي تأسست في الثلاثينيات على التوالي: السنة ثم الشريعة والصراط وبعدها جريدة البصائر، فـ: "رغم كثرة أعماله في التدريس الذي يستغرق كامل يومه، وشطرا من الليل"، اهتدى إلى الطريق السليم في كيفية توزيع جهده على جبهات متعددة بتوظيف لسانه وفكره وقلمه.

هذا باختصار جملة الوسائل التي استخدمها ابن باديس في بث روح النهضة في الكيان الجزائري الذي أوشك الاستعمار الفرنسي على القضاء عليه، وعن طريقها سعى جاهدا لتثبيت المقومات الوطنية التي بعثت اليقظة العامة في صفوف الجزائريين، وبثت روح التضحية في نفوسهم من أجل استرداد الحق المغصوب.

الهوامش:

[1] -http://www.yabeyrouth.com/pages/index 1354.htm

[2] - ينظر: نور الدين حاطوم، أصالة الثورة الجزائرية. مجلة الثقافة. تصدرعن وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، س 14، ع 84، صفر- ربيع الأول 1405هـ، نوفمبر- ديسمبر 1984م، ص 25.

[3] - ينظر: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، وثورتها المباركة. المطبعة التعاونية، 1965، ج1، ص 29-30.

[4] - الأصلاليون: نقصد بهم les indigènes أي سكان البلاد الأصليين . وقد ورد شرحه في معجم La rousse كما يلي: Indigène: adj et N: qui est né dans le pays où il vit.

[5] - الثقافة، س14، ع 84، ص 25.

[6] - مصلحة الدراسات: "من جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر". مجلة المصادر. فصلية تعنى بشؤون المقاومة الشعبية والحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954. ع 5، صيف 1422هـ-2001م، ص 204.

[7] - د. عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس. ط1، شركة دار الأمة. برج الكيفان. الجزائر، 1998، ص 16.

[8] - إدريس شابو: "الشخصية الجزائرية". جريدة الشعب، ع 18 فيفري 1970، ص 7.

[9] - د. تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1395هـ-1975م، ص54.

[10] - - ينظر: كوليت وفرانسيس جانسون. الجزائر الثائرة. ترجمة: محمد علوي شريف وهنري يوسف سردار. دار الهلال. القاهرة، مصر.1957 م، ص 172.

[11] - عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان. إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس. ص10.

[12] - د. تركي رابح. التعليم القومي والشخصية الوطنية. ص 107.

[13] - كوليت وفرانسيس جانسون. الجزائر الثائرة. ص 41.

[14] - محمد البشير الإبراهيمي. مجلة مجمع اللغة العربية. ع 21، القاهرة 1966، ص 147.

[15] - د. تركي رابح . التعليم القومي والشخصية الوطنية. ص 108.

[16] - ينظر: المرجع نفسه، ص 192.

[17] - ينظر: المرجع نفسه، ص 192.

[18] - محمد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر. ش.و.ن.ت. الجزائر. [د.ت] . ص 22.

[19] - محمد طه بدوي وآخر. دراسات سياسية وقومية. منشأة المعارف. الإسكندرية. [د.ت]. ص 86-87.

[20] - كوليت وفرانسيس جانسون . الجزائر الثائرة. ص 130.

[21] - د. كامل الباقر في معركة الثقافة الأنجلو المصرية، 1965، ص25.

[22] - المرجع نفسه، ص 25.

[23] - طه الحاجري. جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر. معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة .1986، ص 97.

[24] - ينظر: د. تركي رابح: مرجع سابق، ص 136.

[25] - ينظر: د. تركي رابح . مرجع سابق، ص 137-139.

[26] - نقولا زيادة، صفحات مغربية، دار الطليعة، بيروت 1966م، ص 312.

[27] - ينظر: د. تركي رابح، مرجع سابق، ص102
[28] - المرجع نفسه، ص 53-54.
[29] - المرجع نفسه، ص 58.
[30] - المرجع السابق، ص 193.
[31] - المرجع نفسه، ص 193.
[32] - المرجع نفسه، ص 194.
[33] - ينظر: نقولا زيادة، مرجع سابق، ص 310.
[34] - د. عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر، مرجع سابق، ص 12، عن: تركي رابح: الشيخ عبد الحميد، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم. ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص 236.
[35] - ينظر: د. عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، مرجع سابق، ص 14.
[36] - المرجع نفسه، ص 14-15.
[37] - تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر. ط 3، ش.و.ن.ت. الجزائر ،1981، ص:184 عن: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، "الرجال أعمال".جريدة البصائر، ع 44، 1948.
[38] - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. الشهاب. ج 4، عدد خاص يونيو ويوليو (جوان-جويلية)، 1938، ص 167.
[39] - عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان. مرجع سابق، ص 59.
[40] - الممتحنة، 8.
[41] - المرجع السابق، ص 59، عن: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس. ج4 ، مطبوعات الشؤون الدينية، ص 112.
[42] - ينظر: محمد زرمان، منهج جمعية العلماء في تجديد العقيدة الإسلامية، ص 22.
[43] - المرجع نفسه، ص:114-115.
[44] - أحمد الشرباصي، يسألونك في الدين والحياة، ج1، ص 9
[45] - د. عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، مرجع سابق، ص 59-60.
[46] - المصدر نفسه، ص 105-107.
[47] - المصدر نفسه، ص 105-107.
[48] - المرجع نفسه، ص 85.
[49] - ينظر: المرجع نفسه، ص 86.
[50] - جريدة البصائر. ع171، س 4، 22 جوان 1939، ص 5
[51] - هنا يتحدث بلسان جميع معلمي اللغة العربية.
[52] - عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان. مرجع سابق، ص 89، نقلا عن عيون البصائر، دار المعارف، 1963، ص 384.
[53] - ينظر: أحمد خطيب. مرجع سابق، ص 130.
[54] - تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 338.
[55] - البصائر، س 4، ع 171، 22 جوان 1939، ص 5-6.

[56]- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات) . القسم الثاني (الجزائر 1925-1954). ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1988، ص61.
[57] - المصدر نفسه، ص 59.
[58] - عبد الحميد بن باديس. "كلمة حرة"، الشهاب، ج 9 ، مج 13، نوفمبر 1937، ص 403-406.
[59] - أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية. ج 3 ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص 111.
[60] - تركي رابح. الشيخ عبد الحميد بن باديس. مرجع سابق، ص 350.
[61] - ينظر: المرجع نفسه، ص 351-354. وينظر أيضا :الدكتور عبد القادر فضيل ومحمد الصالح، مرجع سابق، ص 226.
[62] - المرجع السابق، ص 225.
[63] - ينظر: المرجع نفسه، ص 226.
[64] - المرجع نفسه، ص 225.
[65] - د. أحمد الخطيب، مرجع سابق، ص 201-202.
[66] - البصائر. س 3، ع 14، 18 نوفمبر 1938، ص 1
[67] - د. أحمد الخطيب، مرجع سابق، ص 206.
[68] - تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية. ص 229.
[69] - المرجع نفسه، ص 229.
[70] - المرجع نفسه، ص 230.
[71] - ينظر: المرجع نفسه، ص 230.
[72] - ينظر: المرجع نفسه، ص 228-229.
[73] - د. عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، مرجع سابق، ص 38.
[74] - المنتقد، ع 1، 2 جويلية 1925، ص 1.
[75] - عبد القادر ومحمد الصالح رمضان، مرجع سابق، ص 38.
[76] - أحمد الخطيب. مرجع سابق، ص 142.
[77] - المرجع نفسه، ص 142.